فهـــرس الـعـــدد

الدراســات التاريخيــة

القديم : التمـوسع الرومانى نحـو الجنـوب الجزائرى وآثاره الاقتصادية والاجتماعية — **شنيتى محمد بشـير** — 2

الوسيط : مصادر ثورة ابن يزيد مخلد بن كيداد — **د. احســان عبــاس** — 25

الحركة الاباضية فى تاهرت وسدراتة وغرداية — **د. محمد بلغــراد** — 43

من قضايا التاريخ الرستمى — **د. لقبــال موسى** — 51

الحديث : مدينة ورقلة فى رحلة العياشى — **د. مولاى بلحميسى** — 60

ورقلة ومنطقتها فى العهد العثمانى — **د. ناصر الدين سعيدونى** — 71

الوضع فى منطقة ورقلة قبل الاحتلال الفرنسى — **د. عبد الحميد زوزو** — 96

المعاصر : نماذج من مقاومة سكان الواحات — **د٠ يحيى بوعـزيز** — 117

الــدراسات الاقتصــادية

ورقلة عروس مدائن الجنوب الجزائرى — **د. عبد القادر زبــادية** — 141

تطور ناحية ورقلة ما بين 1962 ــ 1975 — **جلــول مكــى** — 147

التـــراجـم

أبو يعقوب يوسف الورجلانى وكتابه الدليل والبرهان — **عبد الرحمن الجيلالى** — 162

أبو عمار الكافى والنسق الكلامى — **د. عمــار الطالبى** — 172

الــدراسات الحضــارية

الفن الرستمى بتاهرت وسدراته — **د. رشيد بورويبة** — 180

لمحات من دور الدولة الرستمية فى ميادين الحضــارة والفكر لبعض الباحثين القدامى والمتأخرين — **المهــدى البوعبدلى** — 193

ورقلــة من خــلال النصــوص — **د٠ مولاى بلحميسى** — 207

القســم الفــرنسى

ورقلــة من خــلال النصــوص — **د٠ مولاى بلحميسى** — 1

الحركة الأباضية
في تاهرت وسدراته

د. محمد بلغراد
معهد اللغة والأدب العربي
جامعة الجزائر

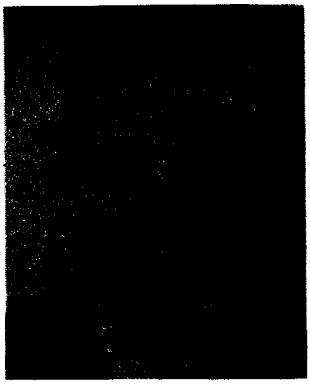

مقدمة :

يطلق اسم الاباضيين في شمال افريقية على فرقة من الخوارج الذين دخلوا الى المغرب العربي حوالى منتصف القرن الثاني الهجرى من اباضية وصفرية . وانتشر المذهب الاباضي بسرعة بين البربر حتى أصبح المذهب القومي لهم اتخذوه ذريعة لمقاومة أهل السنة من العرب .

وينتهى الاباضيون الى عبد الله بن اباض (بكسر الاول) المقاعسى المرى التميمى رأس الاباضية واليه نسبتهم . كان معاصرا لمعاوية وعاش الى أواخر أيام عبد الملك ابن مروان . عده الشماخى فى سيره فى التابعين ... قال : وكان كثيرا ما يبدى النصائح لعبد الملك بن مروان . وفى حفظى أنه يصدر فى أمره عن رأى جابر بن زيد اهـ . وجابر هذا يعده الاباضية مؤسس مذهبهم . وعده محمد بن زكريا البارونى فى كتابه

طبقات الاباضية فى مقدمة أبناء النصف الثانى من المئة الاولى للهجرة ، بعد جابر ابن زيد · وقال محمد بن سعيد القلهاتى فى كتابه : الكشف والبيان : نشأ (عبد الله بن اباض) فى زمان معاوية بن أبى سفيان وعاش الى زمان عبد الملك ابن مروان وكتب اليه بالسيرة المشهورة اهـ · وأراد بالسيرة رسالة بعث بها عبد الله ابن اباض الى عبد الملك بن مروان يقول فيها بعد البسملة والمقدمة : جاءنى كتابك مع سنان بن عاصم اهـ · تقع الرسالة فى احدى عشرة صفحة أوردها أبو القاسم ابن ابراهيم البرادى فى كتابه الجواهر المطبوع على الحجر بمصر ص 156 ـ 167 ·

وفى الكامل للمبرد : قول ابن اباض أقرب الاقاويل الى السنة اهـ · قال أحمد أمين : ان هذه الفرقة (الاباضية) عاشت وانتشرت فى شمالى افريقية وفى عمان وفى حضرموت وزنجبار واستمرت الى يومنا هذا · فكان من الطبيعى أن يكون لهم أصول اعتقادية وتعاليم فقهية · وكذلك كان · فقد تعدل مذهبهم مع الزمان · فلهم أصول كلامية متأثرة الى حد كبير بمذهب المعتزلة فى القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى فى الجنة وأن الله لا يغفر الكبائر · كما لهم كتب فقهية خاصة تخالف أهل السنة فى بعض الفروع مثل أنهم لا يرون الزواج يصح الا فيما بينهم اهـ · وأخبار الاباضيين كثيرة فى التاريخ القديم والحديث · ولا يزال مذهبهم منتشرا ·

قال حافظ رمضان فى كتابه « أبو الهول قال لى » : لا تزال بقية هؤلاء فى بلاد الجزائر · وهم يعيشون على وتيرة منظمة وتقاليد عريقة ··· واذا ما طل مدين دائنه دخل المسجد وأعلن ذلك · وحينئذ يقاطع الناس المدين فلا يسلمون عليه ولا يعاملونه حتى يوفى ما عليه اهـ ·

وقال الزركلى : وهم فى المشرق اليوم أكثر أهل المملكة العمانية ولهم فيها الامامة والسيادة · اما فى الجزائر فبلاد وادى ميزاب معظم سكانها اباضية ، ولهم فى كل بلد منها مجلس يسمى مجلس العزابة بفتح العين وتشديد الزاى وهو جمع عازب · ويعنون به من انقطع للعلم والدين عزوبا عن الدنيا · ويتألف من عشرة أشخاص يجتمعون فى مسجد البلد ويفصلون بين المتقاضين ··· ومن أبى حكمهم أعلنوا البراءة منه فيقاطع حتى يرد الحق ويتوب ·

وقد لعب اباضيو طرابلس الغرب وافريقية (تونس) تحت زعامة عبد الاعلى أبى الخطاب المعافرى الحميرى اليمنى دورا حاسما فى تسيير الاحداث السياسية فى طرابلس الغرب وافريقية فى بداية اربعينات القرن الثانى الهجرى ، وكان أبو الخطاب شجاعا بطلا فاستولى أول أمره على طرابلس الغرب سنة 140 هـ ، وحكم افريقية كلها فى بدء سنة 141 هـ ، واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الذى كان من أسرة ايرانية ، وكان عبد الرحمن من الفقهاء الاباضيين بافريقية ، وكان معروفا بالزهد والتواضع وكان قاضيا بالقيروان · وفى سنة 141 هـ ، ولى المنصور العباسى محمد بن الاشعث بن عقبة الخزاعى مصر وأمره باستنقاذ افريقية من هيمنة عبد الرحمن عليها ، فسار ابن الاشعث سنة 142 هـ ، فى أربعين ألفا من الجنود لقتال أبى الخطاب فاستنجد هذا الاخير بعبد الرحمن بن رستم وأمره أن يلتحق به فى وقائعه مع الامير محمد بن الاشعث ·

ولم يكد ابن رستم أن يتلحق فى جنوده الجرارة بأبى الخطاب حتى بلغه نعيه وانهزام جيشه سنة 144 هـ ·

فما وسع ابن رستم الا أن يرجع الى القيروان · فوجدها قد انتقضت عليه وقد اندلعت فيها ثورة عارمة · هرب عبد الرحمن باهله وما حف من ماله ، وخرج مختفيا عن الاعين وألقى عصا التسيار لدى القبائل البربرية الاباضية الذين اكرموا وفادته واستقبلوه بكثير من الاجلال والاكرام واحلوه على الرحب والسعة ·

وشاع يومئذ ذكره فى الآفاق فوفدت عليه مشيخة الاباضية من العلماء والاعيان واخذوا فى تدبير أمرهم وتنظيم شؤونهم ، وفكروا فى انشاء دولة لهم ·

خرج ابن رستم فى أصحابه يطلبون مكانا منيعا يتخذونه مركزا يبثون فيه دعوتهم وينشرون مبادئهم ·

فانتهى بهم المطاف الى تاهرت أو تيهرت على خمسة أميال من تيرهت الرومانية · ثم بويع عبد الرحمن بن رستم فيها اماما سنة 160 هـ ، فكانت الدولة الرستمية الاباضية أول دولة وطنية اسلامية أسست فى هذه الديار · أصبحت هذه الدولة

البربرية الاسلامية باسطة سلطانها العادل على ربوع البلاد الجزائرية ماعدا ناحية الزاب الاغلبية وناحية تلمسان الادريسية ٠

وكان المذهب العام يومئذ للبربر فى كل بلاد الدولة هو المذهب الاباضى ، وقليل منهم كان معتنقا للمذهب الصفرى ٠ وأصبحت تيهرت مدينة من اعظم مدن المغرب فى الحضارة والعمران ٠

وأتخذ أئمة تيهرت القصور البديعة لسكناهم وأسسوا الدولة فأحسنوا تأسيسها على البر والتقوى وعملت على نشر الثروة والرفاهية والرخاء وعبدت الطرق ووسعت نطاق التجارة مع كل البلاد، وأقبل البربر والمسلمون على خدمة الارض فأصبحت مملكة تاهرت حديقة غناء فيها من كل فاكهة زوجان ٠

وقد تغنى المؤرخون بذكر هذه المدينة الجزائرية ٠ وقد بلغت الصناعة فيها مدى بعيدا فى الجودة والاتقان واختط الرستميون مدنا وقرى جديدة وأصلحوا ما أخنى عليه الدهر من المدن والقرى العتيقة فقد كانت هذه الدولة الفتية مؤسسة على سنن الجمهورية الاسلامية ان صح التعبير كما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين ٠ رئيسها امام ينتخبه القوم انتخابا حرا ، وهو يستشير فى كبار الامور أعيان المذهب وأعلامه وفى الامور العامة يستشير وجوه القوم والقبائل ويعين الامام القضاة بعد استشارة العلماء وكان قضاة الرسميين على حظ وافر من الاستقامة والنزاهة والصلاح ٠

سدراتة

كان لسقوط الدولة الرستمية وقع عظيم فى نفوس علية القوم والوجهاء من الاباضيين أولى الغيرة الوطنية ودخلوا مدينة بنى وارجلان ، وهناك على بعد أربعة عشر كيلومترا جنوبا أخذوا فى تخطيط عاصمتهم الجميلة سدراته المعروفة عند البربر باسدراتن ٠ فأنشأوا فيها حضارة عظيمة وبنوا بها قصورا بديعة ومنازل رفيعة وأقاموا بها بساتين ومزارع ومنشآت ضخمة ٠ وقد شرع علماء الآثار فى الكشف عن هذه المدينة التى غطتها الرمال وتراكمت عليها الكثبان ، وقد بينت الحفريات التى وقعت فى القرن التاسع عشر وأثناء الحرب العالمية الاخيرة وبشكل خاص الحفريات

التى أشرفت عليها الآنسة مرغريت فان برشم بين سنة 1950 وسنة 1952 فوقع خلالها العثور على آثار جليلة قيمة من بيوت وقصور ونقوش مزخرفة وخطوط كوفية وأشكال هندسية وأوان متنوعة · وهذه التحف هى عربية شرقيـــة أكثـر مما هى بربريـــة صحراوية على مسافة أربعة عشر كم ، جنوبى ورقلة تمتد كثبان الرمل على مد البصر وتغطى أطلال المدينة الاباضية القديمة سدراته ·

والوصول اليها ليس بسهل · يتجه السائر من ورقلة نحو الجنوب الغربى عـــلى طريق وعر يؤدى الى المنيعة · ثم يتياسر وبعد بضعة كيلومترات تظهر سلاسل الكثبان الاولى التى تشرف عليها غارة كريمة وهو جبل منعزل يقع على مسافـة عشرين كم ، تقريبا من ورقلة · كثبان الرمل متراكمة على أطلال المدينة التى تهدمت جدرانهـــا المرتفعة الى علو خمسة عشر مترا ·

ذكرت مرغريت فان برشم أن من أصعب الصعب تسيير حفريات فى مثل هذا المكان واكتشاف آثار المدينة العتيقة لكثرة الصعوبات وبعد الاماكن الآهلة بالسكان · تهب على المدينة باستمرار عواصف رملية هوجاء · قد أشرفت مرغريت فان برشم عـــلى حفريات فى ربيع سنة 1951 وحدها من دون ان تستعين بأى وسيلة تقنية حديثة · وكانت تواصل عملها فى ظروف جوية قاسية ، ولم تستعن الا بقرابة عشرين عاملا لا خبرة لهم وبعشرة حمير · تنقلهم كل يوم شاحنة عسكرية ·

تفضل العقيد حاكم مقاطعة الواحات بوضعها تحت تصرفهم ، تنقلهم عند الفجر من ورقلة الى ورشة العمل ثم تردهم مساء الى ورقلة حيث يتزودون بالماء لان سدراته لا ماء فيها ، توقفت الحفريات بعد شهر ثم استؤنفت من جديد فى شهر ديسمبر 1951 وشهر جانفى 1952 ·

وقد جاوزت نتائج هذه الحفريات كل ما كان يتوقع · فقد أغنت تاريـخ الفـــن الاسلامى والتاريخ العام للفن بكشوف جديدة ذات خطورة كبيرة · وقد جمعت الآنسة مرغريت فان برشم حصيلة هذه الحفريات فى خمسين صندوقا أرسلت الى مدينة الجزائر ليدرسها علماء الآثار · وهى موجودة الآن فى متاحف العاصمة ، واكتشاف هـــذه

المجموعة من الاحجار والزخارف الفنية الوحيدة فى نوعها وأصالتها يثير مشاكل شتى لا يزال التاريخ عاجزا عن وجود حل لها · ذلك لانه ما زالت تنقصنا معلومات دقيقة حول أصل مدينة سدراته ونموها ونهايتها ، هذه المدينة التى يظهر ـ حسبما بينته البحوث الاخيرة ـ انها مركز ذو أهمية أكبر وذو حضارة أوسع مما كان يظن · فاذا كانت هذه العاصمة الاباضية لا تزال سرا مكتوما وطلسما مغلقا غامضا لا يهتـــدى أحد الى تفسير معمياته ربما ذلك لان كثيرا من المخطوطات كما يقال قد أحرقت وأتلفت عبر الخلافات الناشبة بين فرق الخوارج المتنازعة ·

ولكن ثم سببا آخر لهذا الظلام المخيم على تاريخ وحضارة هذه المدينة هو أن المصادر التاريخية الاباضية لم تدرس الى الآن دراسة مستأنية متعمقة مستوعبة لان بنى ميزاب المعاصرين الذين هم أحفاد سكان سدراته من الاباضيين هم محتفظون غالبا بالارشيفات التاريخية النفيسة كأنه سر يستأثرون به ولا يريدون لقاء أى ثمن أن يفشوه ويظهروه لاحد · ولكن الزمان لا يفتأ مواصلا عمله ببطء · وبنو ميزاب يعتزون بماضيهم وهم على حق فى ذلك ، ولكنهم ينبغى لهم أن يسمحوا شيئا فشيئا للمعنيين بدراسة الآثار والمدنيات العتيقة أن يتغمقوا فى تاريخها · وذلك باطلاعهم على مصادر هذا التاريخ ووثائقـــه ·

ان سدراته عرفت فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ازدهارا كبيرا · وتاريخ نهايتها لا يزال الظلام يكتنفه من كل جانب ·

ولما غادر سكان سدراته عاصمتهم تحت ضغط ظروف قاهرة تراكمت عليها الرمال· ولكن الاباضيين الذين احتفظت مجموعتهم بكل حيويتها وطاقاتها المعنوية وصمودها لا يزالون يقدسون ذكراها · وفى آخر شهر أبريل من كل سنة يأتون لزيارة ربـوع أمجادهم الغابرة رجالا وركبانا ليصلوا ويبتهلوا على موقع مسجد المدينة يقفون بخشوع على ضريح امامهم ويقرأون فاتحة الكتاب ترحما على روحه الزكية · ورغم عواصف الرمال المتراكمة على المعالم التى يقيمونها كل سنة فهم يهتدون دائما الى مزاراتهـم الطامسة المقدسة ، وهكذا يبقون عبر القرون أوفياء لذكرى ماضيهم المجيد الكامن

فى أطلال سدراته المحيلة الحبيبة تضطرب بتاريخها مشاعرهم وتخفق لذكراها قلوبهم فهى دائما مستكنة فى أعماق نفوسهم فهى قوام كيانهم وغذاء وجدانهم ·

انتهت سدراته من الاخذ والعطاء وحكم عليها بالفناء حوالى سنة 1075 أو بعد ذلك· ولكن الاباضيين احتالوا لانفسهم من قبل لان الظروف القاسية والمحن الماضية علمتهم الحذر والاستعداد دائما لمجابهة المصائب والاهوال · وسقوط تاهرت بالامس القريب لم يزل عالقا بذاكرتهم ·

غـــردايـــة

مدينة غرداية التى تأسست سنة 1053 م ، تعد من مفاخر انجازات الارادة البشرية، وتأسيس مجموعة مدن وادى ميزاب قد حدث فى أقسى الظروف السياسية والجغرافية والجوية والاخلاقية ـ وتخطيط هذه الواحات على هضبة جرداء قاحلة مقفرة قاسية المناخ يعد بحق تحديا من الانسان أمام قساوة الطبيعة فى المحيط الذى يعيش فيه · وهـــو مشـــروع أفلـــح بفضـــل ضغـــط فكـــرة نـــيرة ايجابيـــة واعـــدة · ومدينة غرداية أحدث مدن وادى ميزاب تمكن سكانها من أن يعيشوا عيشة راضية مثاليـــة تضافرت فيها مظاهر الحياة الاقتصادية المزدهرة وتوفرت فيها مظاهر الحسن والجمال فى مناظرها ومصنوعاتها وتحفها وملاهيها لان مدينة غرداية تعد من أجمل مناظر العالم بفضل جمال طبيعتها وتوهج أنوارها واتقان ابنيتها المتلائمة مع الظروف الطبيعية ·

ونقطة الانطلاق لهذه الحضارة البديعة المرتجلة فى هذه المنطقة الخلابة من العالـــم الجزائرى أساسها فكرة خلاقة بناءة ومثال أعلى ونظرية ميتافيزيقية ومذهب دينـــى يموت أصحابه فى سبيل خدمته ونصره ونشره · وكل ذلك يجعل مدن وادى ميزاب موضوعا شهيا لدراسات علماء الاجتماع والآثار وملتقى للسياح المتقاطرين عليه من كل جهات العالـــم ·

أهم المصادر والمراجـــع

1 ــ الاعلام 13 جزءا ــ خير الدين الزركلي ــ الطبعة الثالثة ، بيروت 1969 ·

2 ــ البيان المغرب في أخبار المغرب ــ ابن عذارى المراكشي ــ راجع الجـزء الاول بيروت 1950 ·

3 ــ تاريخ الجزائر العام ، جزآن ــ عبد الرحمن الجيلالي ــ راجع الجـــزء الاول ، الدولة الرستمية، الجزائر 1953 ·

4 ــ ذاكرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ، راجع المواد : الاباضية ــ الاباضيون تاهرت ــ بنو رستم ــ 1933 ·

5 ــ ضحى الاسلام ، ثلاثة اجزاء ــ أحمد أمين ــ راجع الجزء الثالث ــ باب الخوارج ــ القاهرة 1936 ·

6 ــ الكامل ثلاثة أجزاء ــ أبو العباس المبرد ــ الجزء الاول بتحقيق د· زكي مبارك الجزآن الثاني والثالث بتحقيق أحمد محمد شاكر ــ انظر فيه اخبار الخوارج في الفهرست ــ القاهرة 1936 ــ 1937 ·

7 ــ كتاب الجزائر ــ أحمد توفيق المدني ــ الجزائر 1350 هـ ــ 1931 م ·

8 ــ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ــ أبو عبيد البكري ــ الجزائر 1857 ·

(9) Algérie-Actualité N° 495 - Article du Docteur R. Bourouïba : Tahert à l'époque Rostémide.

(10) Algérie-Actualité N° 519 - Article de A. Dhina : Ghardaïa 3e capitale ibadite.

(9) Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman. Tome I - Articles et conférences de Georges Marçais. Alger, 1957.

(10) Revue Africaine - 1946.

(11) Documents Algériens - 20 Août 1953 Ghardaïa par Emile Dermengheur.

(12) Documents Algériens - 1r Septembre 1953 Sedrata par Marguerite Van Berchem.

(13) Algérie-Actualité N° 495 - Tahert à l'époque rostémide par le Docteur Rachid Bourouïba.

(14) Algérie-Actualité N° 519 : I - Ghardaïa, 3e capitale iabdite par Amar Dhina.

(15) Algérie-Actualité N° 520 : II - Ghardaïa, une organisation de vie adaptée à un pays difficile par Amar Dhina.